

قناة لوغوس بالولايات المتحدة الأمريكية

أكتوبر - نوفمبر ٢٠١٦م

الحلقتان ٢٩، ٣٠

قُدَّاسُ المعمودية

تمهيد

يحتل قُدَّاسُ المعمودية في بعض الوثائق القبطية القديمة - مثل "قوانين هيبوليتس"، و"المراسيم المصرية"، أي "قوانين الرُّسُل" في تقليد الكنيسة القبطية - مكاناً متقدماً في الطُّقس، أي قبل مراسيم الجحد وإعلان الإيمان، ولكن منذ منتصف القرن الرابع الميلادي، وحتى اليوم، يأتي قُدَّاسُ المعمودية قبل التَّغطيس في الماء مباشرة، وبعد المراحل الطويلة لإعداد الموعوظين للمعمودية. ففي الحالة الأولى، حين كان قُدَّاسُ الماء يأتي في البداية، كانت طقوس جحد الشيطان والاعتراف بالإيمان والدَّهن بالزَّيت، طقوساً مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بطقس المعمودية نفسه، أمَّا في الحالة الثانية، فأصبحت مراسيم تختص بإعداد الموعوظين.

وبعد أن انتقل قُدَّاسُ تقديس مياه المعمودية ليُصبح فاصلاً بين الجحد وإعلان الإيمان من جهة، وبين الغطسات الثلاث من جهة أخرى، انحصر فعل المعمودية الرئيسي في الغطسات الثلاث، لتحتل هذه الأخيرة مكاناً متميزاً بين مراسيم المعمودية، وتقلَّصت - إلى حدٍّ ما - مراسيم طقوس جحد الشيطان والاعتراف بالإيمان والدَّهن بزيت الاستقسام، بعد أن كانت مراسيم الجحد وإعلان الإيمان، ذا أهمية قُصوى.

وفي قُدَّاسِ المعمودية، تدور الصَّلوات حول عمل الرَّبِّ الذي ثبَّت الأرض على المياه، والذي خَلَقَ المياه التي فوق السَّماء، وجمَعَ المياه إلى مكان واحد. وهو قُدَّاسٌ جميل عميق المعنى. ولأنَّه قُدَّاسٌ قصير، فقد أوردته بكامله على مراحل، فهو خير معبِّر عن ارتباط الصَّلوات بالسِّرِّ المقدَّس.

مقدمة قُدَّاسِ الماء

بينما تورد مقدمة ليتورجية المعمودية القبطية خمسة عشر فعل خلق لعنصر الماء، أو خلاص بواسطته، لا تورد مقدمة ليتورجية المعمودية المعروفة في باقي الكنائس الشَّرقيَّة، سوى أربعة أفعال خلق للماء، بدون ذكر أيِّ فعل خلاصي بواسطته.

وهذه الأفعال الخمسة عشر هي:

- الذي خلق السَّماء والأرض وكلَّ زينتتهما.
- الذي خلق المياه التي فوق السَّماء، وثبَّت الأرض على المياه.
- الذي جمع المياه إلى مكان واحد.
- الذي ربط البحر وغلَّق الأعماق وختمها باسمه، المملوء مجدداً وخوفاً.
- الذي كلَّ شيء يخاف ويرتعد من قُدَّام وجه قُوَّته.
- أنت يا سيِّدنا ثبَّت البحر بقوَّتكَ.
- أنت رضضت رؤوس التَّنين على المياه.
- أنت فلقت الينابيع والأودية، وأعطيت مخرجاً للمياه.
- اللِّهم إنَّ المياه رأتك فخافت، وقَلَّعت الأعماق من صوت المياه الكثيرة.
- أنت نظرت إلى مياه البحر الأحمر برهبتك، فأقمتها وعبَّرت إسرائيل، وبموسى عمَّدتهم جميعاً.

- أنت أمرت الصَّخْرَةَ الصَّمَاءَ فأفاضت الماء لشعبك. وأيضاً المياه المرَّة نقلتها إلى مياه حُلوه.
- أنت أيضاً بيشوع بن نون رددت إلى خلف مياه الأُهمار الجارية.
- أنت المخوف. فمن هو الذي يستطيع أن يقف أمام وجهك. وصعيدة إيلياً التي بالماء، قبلتها بالنَّار من السَّماء.
- أنت أيضاً يا سيِّدنا بواسطة نبيِّك أليشع أظهرت ماء ميلاد الحياة. ونعمان السَّرياني طهَّرتَه بمياه الأردن.
- فأنت القادر على كلِّ شيء، ولا يعسرُ عليك أمرٌ^(١).

وفي فُدَّاس ماء المعمودِيَّة، يقول الكاهن بعد أجوس:

”... الآن أيضاً يا ملكنا ربَّ القوَّات، ملك الجنود السَّمائيَّة، اطَّلِعْ أيها الجالس على السَّارويم، اظهر وانظر إلى جبلتك هذه، أي هذا الماء، امنحه نعمة الأردن، والقوَّة والعزاء السَّمائي. وعند حلول روحك القُدُّوس عليه، هبه بركة الأردن. آمين.

أعطه قوَّة ليصير ماء محيياً آمين.

ماء طاهراً آمين.

ماء يطهِّر الخطايا آمين.

ماء حميم الميلاد الجديد آمين.

ماء البنوَّة آمين.

انعم على هذا الماء لكي لا يوضع فيه، ولا ينزل مع الذي يعتمد فيه، روح رديء، ولا روح نجس، ولا روح النَّهار، ولا روح الظُّهيرة، ولا روح المساء، ولا روح اللَّيل، ولا روح الهواء، ولا روح الغرق، ولا روح الشيطان من الذين تحت الأرض، بل انتهرهم بقوَّتكَ العظيمة، وليصيروا مشدوخين أمام علامة صليبك، واسمك القُدُّوس الذي ندعوه، المملوء مجدداً، المخوف عند المقاومين لنا. لكي يخلع الذين يعتمدون فيه، الإنسان العتيق الذي يفسد كشهوات الضَّلالة، ويلبسوا الإنسان الجديد الذي يتجدد مرَّة أخرى كصورة خالقه، ويضيء فيه (أي في الإنسان الجديد) نور الحق، من قِبَل الرُّوح القُدُّوس، ويفوزوا بالحياة الأبدية، والرَّجاء السَّعيد، ويقفوا أمامك على منبر المسيح، وينالوا الإكليل السَّمائي، وغفران خطاياهم. وليكن هذا الماء وهذا الزَّيت مباركين مملوءين مجدداً مطهَّرين“.

وإنَّه من أبدع صلوات تقديس مياه المعمودِيَّة، تلك الصَّلَاة التي وردت في خولاجي سراييون (١٩:٤-٤) سنة ٣٥٠م، والتي يقول فيها:

”يا ملك وربَّ الجميع وخالق الكُلِّ، الذي يُنعم بالخلّاص لكلِّ طبيعة مخلوقة بمجيء ابنك الوحيد يسوع المسيح. يا من أعتقت خليقتك بمجيء كلمتك الذي لا يُنطق به. فمن ثمَّ تطلَّع الآن من السَّماء أيضاً على هذه المياه، واملأها من الرُّوح القُدُّوس.

ليعمل فيها كلمتك الذي لا يُنطق به، ويجوِّل قوَّتها وليهيئها أيضاً لتمتلئ بنعمتك، لكي لا يكون السرُّ الذي يتم الآن باطلاً في الذين سيولدون من جديد، بل ليملأ بنعمتك الإلهية كلَّ الذين ينزلون ويعتمدون.

يا محبَّ البشر، صانع الخيرات، أشفق على خليقتك، خلص الخليقة التي صنعتها يمينك، صور صورتك الإلهية الفائقة الوصف في كلِّ الذين سيولدون من جديد، لكي يقدرُوا أن يخلَّصوا ويستحقوا ملكوتك.

وكما نزل كلمتك الوحيد إلى مياه الأردن فأظهرها مقدَّسة، هكذا الآن فلينزل في هذه المياه ويجعلها مقدَّسة وروحانية، كي لا يُصبح المعتمدون فيما بعد لحمًا ودمًا، بل أناساً روحانيين قادرين أن يعبدوك أنت أيها الأب غير المولود، بيسوع المسيح في الرُّوح القُدُّوس، الذي به لك المجد والقدرة، الآن وإلى كلِّ آباد الدُّهور. آمين“^(٢).

هذا هو الاستدعاء Epiclesis أي ”استدعاء الابن والرُّوح القُدُّوس“ لكي بحلول الرُّوح القُدُّوس على مياه المعمودِيَّة، يجعل

^١ إنَّ ما يُلفت النَّظر هنا، هو خلو ليتورجية المعمودِيَّة القبطية من التَّسبحة السَّارويمية، وكذلك الحال في ليتورجية المعمودِيَّة التي وردت في خولاجي القُدُّوس سراييون سنة ٣٥٠م.

^٢ النَّصُّ مُترجم عن اليونانية من كتاب:

منها مياه حيَّة مملوءة مجدداً، تحمل فيها قوَّة تطهير الخطايا، والميلاد الجديد. هذا الفعل السرَّاتري، يكمن في قول الكاهن مخاطباً الله: ”أطلع ... اظهر وانظر ... هذا الماء، وامنحه نعمة الأردن، والقوَّة والعزاء السَّمائي ...“. وهو نفس المعنى الذي ورد في فُدَّاسُ الماء عند القديس سريايون: ”تطلَّع الآن من السَّماء، وانظر إلى هذه المياه واملأها من الرُّوح القدس“.

هنا الماء كمادة طبيعيَّة، لا يتحوَّل إلى مادة تفوق الطَّبيعة، إذ تظل المياه مياهاً، لكنَّها تحمل فيها قوَّة إلهيَّة لم تكن فيها قبلاً. وهذا هو السرُّ عينه. وهذا هو ما فعله سرُّ التَّجسُّد الإلهي، الذي جعل من المادة واسطة لشركة إلهيَّة، تماماً كما اتَّحد اللاهوت بالتَّاسوت في شخص السيِّد المسيح له كلُّ المجد، بسرُّ لا يُعبَّر عنه. وهكذا تماماً صار ماء المعموديَّة ماءً مقدَّساً، بحضور المسيح، وحلول الرُّوح القدس.

هنا عودٌ إلى خلق جديد بالماء أيضاً، كما كان في البدء تماماً. وما الخلاص إلا إعادة خلق ما قد فسد. ولكن إعادة الخلق هنا، هو أسْمى وأعظم بما لا يُقارن من الخلق الأوَّل. لأنَّه إن كان الخلق الأوَّل للإنسان كان على صورة الله ومثاله، إلا أنَّ الصُّورة قد فسدت لعصيان الإنسان وتغرُّبه عن خالقه. أمَّا هنا، فإعادة خِلق الإنسان هي لكي يصبح مولوداً جديداً على نفس مثال الجمال الإلهي الفائق الوصف، ليصبح أهلاً لميراث ملكوت سماوي، لا فردوس أرضي. ولكي يتجدَّد مرَّةً أُخرى، كصورة خالقه، مضيئاً بنور الحق، بسكنى الرُّوح القدس، لميراث الحياة الأبدية، بضمأن إلهي جديد، هو ابن الله الوحيد الذي يضمن للإنسان المولود من فوق أن تظل صورته - والتي هي على صورة خالقه - مضيئة دائماً، ومطابقة للأصل الذي جُبلت على مثاله، وهو ما لم يكن من نصيب من جازوا الخلق الأوَّل دون أن يجوزوا الثَّاني.

وفي نهاية هذه الصَّلَاة يقول الكاهن: ”ليكن هذا الماء وهذا الزَّيت مبارَكين مملوئين مجدداً، مطهَّرين“. فما هو هذا الزَّيت الذي تعنيه هذه الصَّلَاة؟ ذلك لأنَّه يُصبُّ في ماء المعموديَّة - ثلاث مرَّات بمثال الصَّلْب - كلُّ من الزَّيت السَّاذج، وزيت الغاليلون (الغاليليون)، وزيت الميرون، مع نفس منطوق الصَّلوات في كلِّ مرَّة سكب، لكلِّ نوع من هذه الأنواع الثلاثة، حيث يقول الكاهن: ”باسم الآب والابن والرُّوح القدس، مبارِكُ الله الآب ... الخ“.

ويلزم أن نلاحظ هنا، بحسب التَّعليمات الطَّقسيَّة، أن سكب كلِّ من زيت الغاليلون وزيت الميرون في مياه المعموديَّة، هو من أجل ”تقدِّس الماء“، وهو ما لم يُذكر عند سكب الزَّيت السَّاذج على المياه.

ويظل الأقباط هم الوحيدين بين الكنائس الشَّرقيَّة، الذين يسكبون ثلاثة أنواع من الزُّيوت في مياه المعموديَّة، هي الزَّيت السَّاذج وزيت الغاليلون (الغاليليون)، وزيت الميرون المقدَّس^(٣).

كما نلاحظ أيضاً، أنَّه لا وجود لأيِّ صلوات تُقال على أيِّ من هذه الأنواع الثلاثة من الزُّيوت، في صلوات المعموديَّة في الطَّقس القبطي، وهو ما يعرفه الطَّقس الأرمني والطَّقس البيزنطي. ومن ثمَّ، فهذه هي المرَّة الوحيدة التي يرد فيها هنا في الطَّقس القبطي ذكرٌ لصلَاة تُقال على الزَّيت أثناء مراسيم المعموديَّة.

يرشم الكاهن الماء بالصَّلْب للمرَّة الثَّانية ثلاث مرَّات ويقول:

”باسم الآب والابن والرُّوح القدس، وشُكر شعبك أجمعين، وعبيدك الذين قدَّموا لك بنيتهم، مجدداً وإكراماً لاسمك القدُّوس، اقبلهم على مذبحك المقدَّس النَّاطق السَّمائي كرائحة بخور، يدخل إلى عظمتك التي في السَّموات بخدمة ملائكتك ورؤساء ملائكتك الأطهار. ياربُّ خلص شعبك، بارك ميراثك، ارعهم وارفعهم إلى الأبد. احفظهم في الإيمان المستقيم كلِّ أيام حياتهم. واجعلهم في الحُبَّة التي تفوق كلِّ شيء، السَّلَام الذي يعلو على كلِّ عقل، بالشَّفاعات والطلِّبات التي للقدِّيسة المملوءة مجدداً والدة الإله مريم، والقدِّيس الصَّابغ يوحنا المعمدان، وسادتي الآباء الرُّسل، وسائر القديسين الذين أروضوك ...“.

إنَّه لمن المبدع حقاً، أن تُصلِّي الكنيسة إلى الله ليس فقط عن أولئك الذين قدَّموا لينالوا المعموديَّة، بل وأيضاً عن الذين قدَّموهم. فالآباء قدَّموا بنيتهم للمعموديَّة، لمجد وإكرام اسم الله القدُّوس. والبنون قد حُسبوا بذلك ذبيحة وقرباناً مقدَّماً على

³ DACL, t. 2, p. 698.

مذبح الرَّبِّ النَّاطِقِ السَّمَائِيِّ، كَرَائِحَةُ بَحْرٍ. فَالْبَنُونَ الَّذِينَ هُمْ مِيرَاثٌ مِنَ الرَّبِّ، يُقَدِّمُونَ الْآنَ إِلَى الرَّبِّ. وَلِسَانَ حَالِ الْآبَاءِ هُوَ: مِنْ يَدِكَ يَا رَبُّ أَعْطَيْنَاكَ، وَنَقَرَّبُ لَكَ مِمَّا لَكَ.

وَبَعْدَ انْتِهَاءِ فُدَّاسِ المعموديَّةِ المَهِيْبِ، يَأْخُذُ الكَاهِنُ المَيْرُونَ المَقْدَّسَ وَيَسْكَبُ مِنْهُ قَلِيلاً جَدًّا فِي المعموديَّةِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِثَالِ الصَّلِيبِ لِيَقْدِّسَ المَاءَ، وَفِي كُلِّ مَرَّةٍ يَقُولُ:
”بِاسْمِ الآبِ وَالابْنِ وَالرُّوحِ الْقُدُّسِ. مَبَارِكُ اللهُ الآبَ ضَابِطَ الكُلِّ آمِينَ. مَبَارِكُ ابْنِهِ الوَحِيدِ يَسُوعَ المَسِيحِ رَبَّنَا. مَبَارِكُ الرُّوحِ الْقُدُّسِ البَارْقَلِيطِ آمِينَ“.

وَقَدْ سُئِلَ القُدِّيسُ بِاسِيلْيُوسُ، هَلْ يَبْطُلُ فِعْلُ المعموديَّةِ إِنْ وَقَعَ شَيْءٌ فِي جُرْنِ المعموديَّةِ؟ فَأَجَابَ بِأَنَّ هَذِهِ الأُمُورَ وَأَمْثَالَهَا لَا تُبْطِلُ المعموديَّةَ، فَإِنَّ تَقْدِيسَهَا يَتَجَدَّدُ كُلَّ يَوْمٍ بِنَضْحِ المَيْرُونَ عَلَيْهَا. عَلَيَّ أَنَّهُ إِذَا كُنَّا نَرشُمُ بَعْضَ أَعْضَاءِ الجَسَدِ بِالمَيْرُونَ المَقْدَّسَ لِنَتَنَفَعُ بِهِ بَعْضَ الأَعْضَاءِ الظَّاهِرَةِ، فَلَا مَنَعَ مِنْ سَكَبِ حُزْءٍ مِنْهُ عَلَى المَاءِ نَفْسَهُ الَّذِي يُغَطِّسُ فِيهِ المَعْتَمِدَ بِرَمْتِهِ، لِيَتَقَدَّسَ الجَسَدُ كُلُّهُ وَتَتَنَفَعَ سَائِرُ الأَعْضَاءِ^(٤). وَإِنَّ عَادَةَ سَكَبِ المَيْرُونَ المَقْدَّسِ فِي مِيَاهِ المعموديَّةِ قَدْ اسْتَقَرَّتْ عِنْدَ الأَقْبَابِ مِنْذُ القَرْنِ الرَّابِعِ المِيلَادِيِّ^(٥).

الغطسات الثلاث

هنا نصل إلى مركز السرِّ ومحوره، وهو التَّزْوِلُ فِي المَاءِ لِلدَّفْنِ فِيهِ بِشِبْهِ مَوْتِ المَسِيحِ الَّذِي مَاتَهُ لِأَجْلِنَا. «مَدْفُونِينَ مَعَهُ فِي المعموديَّةِ لِلْمَوْتِ». وَهَكَذَا يَصِفُ القُدِّيسُ بِاسِيلْيُوسُ الكَبِيرُ طَقْسَ المعموديَّةِ فِي حُدُودِهِ النَّهَائِيَّةِ بِقَوْلِهِ:
[وَبِغَطْسَاتٍ ثَلَاثٍ، وَاسْتِدْعَاءَاتٍ بِنَفْسِ هَذَا العَدَدِ، يَتِمُّ سِرُّ المعموديَّةِ العَظِيمِ]^(٦).

وَتُعَدُّ الغَطْسَاتُ الثَّلَاثُ فِي كُلِّ مَكَانٍ، تَقْلِيداً أَصِيلاً قَدِيماً يَمْتَدُّ إِلَى زَمَنِ الآبَاءِ الرُّسُلِ القُدِّيسِينَ^(٧). وَيُخْبِرُنَا سِزُومِينُ المَوْرُخُ (أَوَّلُ القَرْنِ الخَامِسِ) عَنِ مَعْتَقَدَاتِ خَاطِئَةٍ ظَهَرَتْ فِي القُسْطَنْطِينِيَّةِ، مَنسُوبَةٌ إِلَى إِفْنُومِيُوسِ Eunomius الَّذِي ابْتَدَعَ طَقْسَ التَّغَطِّيسِ لِمَرَّةٍ وَاحِدَةٍ. فَيَقُولُ فِي ذَلِكَ: ”يَقُولُونَ إِنَّ إِفْنُومِيُوسَ هُوَ أَوَّلُ مَنْ تَجَرَّأَ عَلَى القَوْلِ بِأَنَّ المعموديَّةَ المَقْدَّسَةَ يَجِبُ أَنْ تَتِمَّ بِغَطْسَةٍ وَاحِدَةٍ، وَهُوَ الَّذِي أَفْسَدَ بِذَلِكَ التَّقْلِيدَ الرِّسُولِيَّ، الَّذِي ظَلَّ مَحْفُوظاً حَتَّى الْآنَ فِي كُلِّ مَكَانٍ“^(٨). وَقَدْ أَشَارَتْ قَوَانِينُ مَجْمَعِ القُسْطَنْطِينِيَّةِ سَنَةَ ٣٨١ م إِلَى تَعَالِيمِ إِفْنُومِيُوسِ رَافِضَةَ الاعْتِرَافِ بِمَعْمُودِيَّتِهِ. فَيَقُولُ القَانُونُ السَّابِعُ مِنْ قَوَانِينِ المَجْمَعِ: ”... عَلَى أَنَّ أَتْبَاعَ إِفْنُومِيُوسِ الَّذِينَ يَمَعَّدُونَ بِغَطْسَةٍ وَاحِدَةٍ ... وَكُلُّ المُنْتَمِينَ إِلَى البِدْعِ الأُخْرَى - لِأَنَّ البِدْعَ عَدِيدَةً وَلا سِيَّماً بَيْنَ القَادِمِينَ مِنْ بِلَادِ غِلَاطِيَّةِ - كُلُّ هَؤُلَاءِ عِنْدَمَا يَرِغِبُونَ فِي الرُّجُوعِ إِلَى الأَرْتُوذُكْسِيَّةِ نَقْبَلُهُمْ كَمَا نَقْبَلُ الوَثْنِيِّينَ ...“.

إِنَّ مِمَّا مَارَسَهُ التَّغَطِّيسُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ هُوَ الطَّقْسُ الَّذِي يَرَاعِيهِ الشَّرْقُ المَسِيحِيُّ بِدَقَّةٍ، وَيَحْفَظُهُ كَتَقْلِيدِ رِسُولِيٍّ. وَالقُدِّيسَانِ كَبِيرُوسُ الكَبِيرُ (٤١٢-٤٤٤ م) وَيُوحَنَّا ذَهَبِيُّ الفِمْ (٣٤٧-٤٠٧ م)، وَمَعَهُمَا ثِيُودُورِيَّتُ (٣٩٣-٤٦٦ م)، وَكَذَلِكَ الكِتَابُ المَنسُوبُ لِديُونِيسِيُوسِ الأَرِيُوبَاغِيِّ (القَرْنُ الخَامِسُ)، وَأَيْضاً يُوحَنَّا الدَّمَشَقِيِّ (٦٧٥-٧٤٩ م)، وَآخَرُونَ، هُمْ شُهُودٌ لِتَقْلِيدِ مِصْرَ وَسُورِيَا وَفِلَسْطِينَ، لِمَمَارَسَةِ مَسْتَقَرَّةٍ لِلْمَعْمُودِيَّةِ بِالتَّغَطِّيسِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، بِاسْمِ الآبِ وَالابْنِ الرُّوحِ الْقُدُّسِ.

وَيُؤَكِّدُ هَؤُلَاءِ الآبَاءُ بِمَخْصُوصِ لِحْظَةِ الخُرُوجِ مِنْ مِيَاهِ المعموديَّةِ بَعْدَ كُلِّ غَطْسَةٍ مِنَ الغَطْسَاتِ الثَّلَاثِ، أَنَّهُ يَلِزِمُ أَنْ يَتَّبِعَ كُلُّ خُرُوجٍ مِنَ المَاءِ إِقْرَارَ بَقِيَامَةِ المَسِيحِ.

وَفِي الرِّسَالَةِ الأُولَى لِلقُدِّيسِ أَنْتَانِاسِيُوسِ الرِّسُولِيِّ عَنِ الرُّوحِ الْقُدُّسِ إِلَى الأُسْقُفِ سَرَابِيُونِ يَقُولُ لَهُ:

[الإيمان بالثالوث المسلّم لنا يوحدنا بالله. فمن ينتزع شيئاً من الثالوث ويعتمد باسم الآب وحده، أو باسم

^٤ الفُصُّ يُوْحَنَّا سَلَامَةَ، اللَّائِي النَّفِيسَةَ فِي شَرْحِ طَقُوسِ وَمَعْتَقَدَاتِ الكَنِيسَةِ، الجُزْءُ الأَوَّلُ ص ٥٢، ٥٣

^٥ DACL, t. 2, p. 697

^٦ St. Basile, De Spir. Sancto, c. XV, 35 ; PG xxxii, col. 130- 132.

^٧ DACL, t. 2, p. 292.

^٨ Hist. Eccl., 1. VI, c. xxvi ; PG lxxvii, col. 1362.

الابن وحده، أو باسم الآب والابن بدون الرُّوح القُدُّس، فهو لا ينال شيئاً، بل يظل فارغاً وغير مستوفٍ شروط الانضمام، هو والذي ظنَّ أنه منحه المعمودِيَّة [٣٠:١].

وهنا يلزم جدًّا أن نوضِّح أنَّ ”قوانين هيبوليتس“ هي طقس المعمودِيَّة القبطي الذي مارسه كنيسة الإسكندريَّة في غضون القرن الخامس الميلادي. ويتَّضح أنَّ الأسئلة الثلاث التي تتخلَّل الغطسات الثلاث، كان يتعلَّق كلُّ سؤالٍ منها بأحد الأقبانيم الثلاثة، ولكن كلَّ غطسة من الغطسات الثلاث، كانت باسم الثلاثة أقبانيم معاً، الآب والابن والرُّوح القُدُّس.

إذاً؛ فقد راعى الطَّقْس القبطي القديم أمرين عند الغطسات الثلاث هما:
أنَّ كلَّ غطسة من الغطسات الثلاث يسبقها سؤال عن أحد الأقبانيم الثلاثة، يجيب عنه المعمد بكلمة ”آمين“.
وأنَّ كلَّ غطسة من الغطسات الثلاث تكون باسم الآب والابن والرُّوح القُدُّس.

ولقد أجاب البابا تيموثاوس الإسكندري (٣٧٨-٣٨٤م) على سؤال ما إذا كان يجب أن يُعمد طفل لا نتذكَّر أنَّه نال العماد، فأجاب مؤكداً ’نعم‘. وذكر بخصوص تلك الحالة وأمثالها استخدام صيغة شرطية هي: ”إذا لم تكن قد عمَّدت، فأعمدك باسم الآب والابن والرُّوح القُدُّس“.

ويقول القانون رقم (٧٢) من قوانين مجمع قرطاجنة الذي عُقد سنة ٤١٩م:

”قد استحسِن المجمع أنَّه حيث لا يوجد شهود ثقة، يشهدون بأنَّ الأطفال قد عمِّدوا، وهؤلاء لصغر سنهم لا يدركون أن يعطوا جواباً عن أنفسهم إن كانوا قد نالوا هذا السرِّ، فيجب أن يُعمِّدوا بدون تردُّد، لئلا يُحرِّموا لهذا السبب من نعمة التَّطهير والتَّقيديس. وقد ألحَّ بهذا الطَّلِب إخوتنا الغائبون في مراکش (المغرب) وجنوبي إسبانيا، لأنَّهم يحرِّرون عدداً وافراً من الأطفال من بلاد البربر“.

الاستجابات الثلاثة (بحسب الطَّقْس القديم)

يُرجع القُدِّيس كيرلس الكبير ومعه أمونيوس كاهن الإسكندريَّة (القرن الخامس) أصل الأسئلة الثلاثة المختصَّة بالإيمان والإجابات عليها، إلى إنكار القُدِّيس بطرس الرِّسول للرَّب ثلاث مرَّات^(٩).

وإنَّ كتابات الآباء تُقدِّم لنا إثباتات كثيرة قديمة لممارسة الاعتراف بالإيمان، تحت شكل أسئلة وأجوبة. وقد أشار إلى أهميَّتها أيضاً البابا ديونيسيوس الكبير (٢٤٨-٢٦٥م) ال ١٤ من باباوات الكنيسة القبطيَّة، وذلك في رسالته الخامسة التي كتبها إلى سيكستس الثاني Sixtus II أسقف روما (٢٥٧-٢٥٨م) حيث شرح فيها البابا ديونيسيوس حادثة وقعت لأحد الإخوة في كنيسة مصر، عندما حضر مراسيم المعمودِيَّة، وسمع الأسئلة والأجوبة، فتيقن في قلبه أنَّ المعمودِيَّة التي اقبلها لم تكن كما رآها وسمعا، إذ كانت مملوءة كُفراً وتجديفاً. فيقول بأسلوب مؤثِّر:

[كان أحد الإخوة ... يُعتبر مؤمناً منذ زمن طويل ... وكان حاضراً مع من تعمِّدوا أخيراً. وعندما سمع الأسئلة والأجوبة، أتاني باكياً ونادياً سوء حظِّه، وسقط عند قدمي، واعترف محتجاً بأنَّ المعمودِيَّة التي عمِّد بها مع الهرطقة لم تكن كهذه المعمودِيَّة بأيِّ حال من الأحوال، إذ كانت مملوءة كُفراً وتجديفاً ... لهذا طلب أن ينال هذا التَّطهير الكامل، وهذه النعمة الجزيلة. ولكنني لم أحسُر على أن أفعل هذا. وقلت: ’إنَّ شركته الطويلة كافية‘. لأنني يجب ألاَّ أحسُر على أن أجدد من البداية شخصاً سمع الشُّكر، واشترك في ترديد آمين، ووقف أمام المائدة، ومدَّ يديه ليتناول الطَّعام المبارك، وتناوله فعلاً، واشترك وقتاً طويلاً في جسد ودم ربِّنا يسوع المسيح ... لكنَّه لا يكف عن التَّحبيب ... الخ[^(١٠).

⁹ Cf. *DACL*, t. 2, p. 265.

^{١٠} تاريخ الكنيسة ليوسابيوس القيصري، (٩:٧)، مرجع سابق، ص ٣٥٢